الفلسـفة والصـداقة

أو

أزمة اليونيفرسال

موسى وهبه

1 أركان الصداقة

• قصديًّا، أي من المفترض أن يكون، الفلاسفة أصدقاء صوفيا، ومن ثمّ أصدقاء في ما بينهم. أفرادًا عاشقين يتنافسون لنيل الحظوة في عينيّ صوفيا. العشق يؤسّس للأطيقا، وهذه تعيّن أنواع السلوك. وصوفيا ليست سعدى بنت الزناتي خليفة ملك تونس: فرسان بني هلال يتنافسون للحظوة بها، لا لنيل الحظوة في عينيها[1].

• أداة التنافس ممارسة القول لا المقارعة بالسيف. ونفاذ القول الإقناع أو إفحام الآخر، **أيّ** آخر قائمًا كان أم مفترضًا، بالحجّة.

• إمكان الإفحام يستند إلى شروط يونيفرسالية العقل السليم ومستنداته (سقراط والعبد والغرباء، ديكارت وأعدل الأشياء قسمة بين الناس أي بين أفراد متساوين في القدرة على تمييز الصواب من الخطأ)، ويصدق على نحو كليّ وملزم.

• الفرد لا الجماعة، القول لا السيف، اليونيفرسال لا الخصوصية، تلك هي أعمدة الفيلوصوفيا الثلاثة: ضمير جمع المتكلّم، ال"نا"، يعني، في القول الفلسفي، البشرية جمعاء لا العرب ولا العجم وحسب. وتعدّد اللوغُس لا يعيق يونيفرساليته لأن اشتغاله بالأفاهيم لا بالصور البلاغية قمينٌ بجعله قابلا للترجمة من دون تخصيص: يصعب ترجمة "خرساء الأساور" وأداء المعنى من دون شروحات طويلة؛ وصحيح أن "ماهيّة" يفرق عن "ουσια" (أوسيه) وأن ثمّة فروقًا بين اللغات، إلا أنها فروق مُغْنِية وقائمة في اللغة الواحدة نفسها.

• القول الفلسفي ينشأ في المدينة أو هو ينشئ بالأحرى مدينة، ويبذل علانية بين أصدقاء أحرار ومتساوين، جماعة إنسانيّة تنشئ مدينة أمثلية، تنشئ عالما يبحث عن حقيقته بحثا منزّها عن الغرض. والمدينة غير الريف: الانتساب إليها يحصل بالشخص لا بالعائلة؛ وأحياء المدينة تتوزّع مهنيًّا: سوق الحدّادين، ساحة الشهداء مثالا، أو تتجرّد إلى أرقام: دوائر باريس العشرين مثالا؛ في مقابل حارة النصارى أو حيّ العيتاني مثالا مضادًّا. الأغورا، الساحة العامّة تلخِّص المدينة.

---

[1] على ما ورد في **تغريبة بني هلال**

هذا قصدِيًّا، أي بحسب معيش المشتغل في الفلسفة. لكن الموقف اليومي في العالم الواقعي يستند إلى الذوكسا والحميّة. وما إن يغادر القصديّ حتى تستحوذ على الاهتمام "واقعة" أنّ خاصّيّة الإنسان، على ما سيقول هيدغر ومن بعده سارتر، هي أن يكون في العالم: In-der-Velt-sein (الفِعلَمِيَّة).

2 مربط الحميّة

• واقعيّا، الفيلوصوفيا ظهرت في معارضة الذوكسا. فالفلسفة ليست رأيًا ولا تدبيرا للشؤون اليومية. وصديق الذوكسا يدعى الفَيْلذوك[2]. والفلاذكة لا تجمهم الصداقة ولا البحث المنزّه عن الغرض، بل تحرّكهم الحميّة[3] كلاّ في "قضية" تخصّه.

• مربط الرأيِ والاعتقادِ المخيّلةُ والحافظة، القوّة الغضبيّة بحسب أفلاطون، لا العقل. ووسيلةُ الرأيِ، في جانبه السلمي، الخطابةُ (البلاغة). وغايتُه إذعانُ الخصم: يعتمد القصص والصور، لا الحُجَّة والبرهان (أرسطو). ويهدف إلى التغلّب أو المنفعة، فيعبّر لا عن البشريّة جمعاء، بل عن القبيلة أو الطائفة أو الأمّة.

• الفيلذوك شاعر قبيلة أو قائد أمة. عالمه ليس واحدا بل منقسم بين سيّد وعبد، مؤمن وكافر، مُنير ومُظلِم. ديناميّته توسّعيّة (حربيّة في الغالب: تنوير بالاستعمار، حريّة بالحرب، إيمان بالجهاد).

3 جدل الصداقة والحميّة

• الفلذكة مرافقة للجماعات البشرية منذ نشأتها المعروفة ولمّا تزل متّصلة بتدبير شؤون الحيّ والحفاظ على البقاء أو النزوع إلى الغلبة (نيتشه).

أما الفلسفة فطارئة، فقد لا تظهر البتّة عند جماعات بشريّة كثيرة. غائيّاتها لا متناهية (هوسرل). يرافقها، كلازمة، العلم الباحث عن قوانين كلّيّة وثابتة، ويذهب بعضهم إلى حسبان أنّه ينشأ عنها بالضرورة.

وهنا يقتضي التمييز بين أمرين: بين الفلسفة بما هي كذلك، وبين مستعمل الفلسفة أو من يتوخى منها فائدة. ومثل هذا الفرق كمثل الفرق بين الرياضيات وما تصلح له الرياضيات. إذ ليس في ذهن المتفلسف أي دور للفلسفة سوى التفلسف، حين تكتب فلسفة لا همّ لك ولا انهمام سوى إخراج هذه الفلسفة. لا جدوى، من الفلسفة إلا التفلسف. لا جدوى لهذا العمل إلا من خارجه. حيث يهتم الرياضي بالخارج يتوقف بينما يأتي المجتمع ويستعمل الرياضيات للحرب والتموين والاقتصاد. لذلك نقول للمتفلسفين :اصرفوا النظر عن دور الفلسفة في كذا. لا دور للفلسفة إلا

---

[2] قياسا على فيلسوف، وفلذكة قياسًا على فلسفة

[3] الذوكسا = الرأي والاعتقاد. والحميّة هي صورتها القصوى. والحميّة هي الاسم المخفّف للتعصّب، كان استبدله محمد عبده في شرحه لجمال الدين الأفغاني، بهدف إبراز الجانب الإيجابي للتعصّب على الأرجح.

خدمة الفلسفة نفسها، أما الآخرون الذين يرون أن الفلسفة قد تكون ضرورية. فاهتمامهم يخرج من الفلسفة ليقع في باب النهضة والذين يفكرون في الأمة وفي.. عدم التمييز هذا هو الذي يربكنا، وما يربكنا أكثر هو أن معظم المشتغلين بالفلسفة، يلعبون الدورين، وذلك غير ممكن، الفيلسوف لا يهتم بالفلسفة إلا من حيث هي فكرة، وليس من حيث انطباقها على واقع.

• الفلسفة ظلّت إذًا أمْثَلِيّة، لم تصبح واقعا. ومنذ البداية أدلى جزء واحد من المدينة (الأحرار الذكور الراشدون) بدلوه فيها، وظلّت محصورة في أماكن بعينها ولغات قليلة وفئات. كنط: الفلسفة ليست شعبيّة ولا يمكن أن تكون. وهذا لا ينفي يونيفرساليتها، هوسرل: الفلاسفة موظّفو الإنسانيّة.

• تاريخيّا، جرى استعمال الفلسفة من خارج. وكان لا بدّ من تسوية بين الريف، بمعنى التجمّع البشري العصبي، والمدينة. ومنها بخاصّة تسوية القرون الوسطى لصالح الحميّة، وابن رشد[4] مثالا.

• وتسوية أخرى جرت بدعوى اليونيفرسال، إنما لصالح الغلبة: وتاريخ الفتوح والاستعمار بدعوى التنوير والهداية معروف: طالما كان اليونيفرسال يفرض نفسه على العقول كان لا بدّ من رفع رايته مظلّة للفلذكة والحميّة.

4 أزمة اليونيفرسال

• حين لا يعود بالحميّة حاجة إلى المظلّة، حين تُرفع من دون خجل مصلحةُ الأمّة عاريةً، تكون أزمة اليونيفرسال قد بلغت شأوها، وصار من اللازم أن يُفكّر بطريقة أخرى.

• سبق أن قيل إن أزمة اليونيفرسال تبدأ باستقلال علوم الطبيعة والرياضة، ومحاولة تقليدها أو التعالي عليها.

وسبق أن شُخِّصت الأزمة بوصفها تعبيرًا عن حال انفصال العلوم عن مجال إمكانها الفلسفي، حيث بدا تطوّر العلوم مستقلاّ وحرّا، قابلا للتعميم من دون إرثه الفلسفيّ العامّ، وفريسة سهلة إذًا للاستعمال التقاني المتفلّت من أي قيد آطيقي.

• إلا أن ما يهمّني هنا هو الانتباه إلى الضيق بِيونيفرسال كنط المتمثِّل في إعلانه مرجعية العقل محكمةً عليا للبتّ في شؤون النظر والعمل والتشريع والاعتقاد معًا[5]:

لم يكن بوسع هيغل أن يرفض محكمة العقل، إلاّ أنّه يُخضِع اليونيفرسال لتطوّر التاريخ ويؤجّل غلبته إلى النهاية، ويحسب الحرب وسيلة للتطوّر [6]. أما ماركس فيؤجل حلول اليونيفرسال إلى نهاية التاريخ[7].

---

[4] في قوله: الفلسفة هي البحث عن المبادئ والعلل الأولى **"من حيث دلالتها على الصانع"**، وبالضبط في هذه الإضافة.

[5] وبخاصّة الضّيق بإطلاقية الأخلاق وإعلان الإنسان غاية في حدّ ذاته، وعدم إمكان استعماله من ثمّ وسيلةً لغايات أخرى.

• نيتشه يرفض ادّعاء اليونيفرسال ويعارض أخلاق الخدم بأخلاق السادة. هيدغر يتابع نيتشه، مميّزًا "العاميّ" الغافل من "الخاصّي" الأصيل. ورافضًا هيمنة العقلانية الحسّابة والأنسية بدعوى الإصغاء إلى نداء الكون المتوفّر للمُصْطفين وحسب[8].

• وتحسب الوضعية ومدارس التحليل أنها تخطّت أزمة اليونيفرسال بإعلان التعايش بين اليونيفرسال العلمي وتعدّد الذوكسا الاعتقادية. ويلتقي رورتي وهابرماس في نعي الميتافيزيقا ويحاولان إقامة اليونيفرسال على التعاطف الأخلاقي أو على أطيقا الحوار.

• لكن القائم ههنا هوالعولمة: مدينة واحدة بالشرطة والعملة والسوق، توحّد بيولوجي أي توحدّ من تحت، وتعدّد من فوق: أحياء كثيرة تعيش كلّ منها حميّتها الخاصّة: مع انتكاس الميتافيزيقا واحتدام أزمة اليونيفرسال يصبح المجال حرّا لانتعاش الأصوليّات. والحميّة إلى العرش من جديد.

5 تحدّيات التعدّد

• والسؤال المتبقي: كيف يستقيم التعدد فعلاً وكينونة، خارج مرجعية الحميّة؟ أيُّ عقلٍ يتّسع لكثرة حقائقه؟ أو كيف يمكن تسويغ التعدّد في أفقٍ يونيفرسال؟

كيف يكون اثنان على حقّ عندما يزعمان في الوقت نفسه مزاعم متضاربة في صدد الشيء نفسه؟

كيف تكثر الحقيقة ولا تنكسر؟.

• إذا لم نكن نسبح في الوهم جملة أو ننعزل في شرنقة، وإذا كان للكلام معنى يتواصل يجب تدبّر مفهوم للحقيقة مصاقب.

إذا كانت الحقيقة وجهة نظر متسقة مع ذاتها، وإذا كان شيء النظر أو «موضوع» القول يتعين بالوجهة نفسها، فهل معنى ذلك أن لا خروج من الذاتيّة البتة؟ أن لا ذاتيّة عامّة هناك؟

وحين نفرض أن الحقيقة احتمال واحد من احتمالات لا تحصى. احتمال ناجح. المسألة تزداد صعوبة ، والصعوبة لا تنجم عن الافتقار إلى الموضوعية واليونيفرسالية، بل عن وفرة الموضوعيات وكثرة اليونيفرساليات.

وفي كلام أبسط، إذا سلّمنا أن الحقيقة احتمال واحد من احتمالات لا تحصى وهذا لا يعني أن الحقائق نفسها لا تحصى، وإذا سلّمنا أن لا حقيقة إلا صادقة وهذا يعني أنها مصدقة وقابلة للتناقل بوصفها كذلك، وإذا سلّمنا أن الحقيقة الصادقة هي مطلقة في لحظة صدقها وتصديقها وإلاّ غدت مجرد احتمال وظنّ وترجيح إذا سلّمنا بذلك كله، يبقى لنا أن نفهم كيف تكون الحقيقة احتمالاً وتكون مطلقة في الزعم. ثم كيف

---

[6] ما يعني أن الحميّة وسيلة يستخدمها الروح لبلوغ علمانه المطلق بتوسّط مكر العقل في التاريخ.

[7] ماركس يرفض يونيفرسال "ما قبل التاريخ الإنساني" ويربط حلوله بغلبة البروليتاريا وإلغاء الطبقات بانتهاء الصراع الطبقي. ولينِن يعلن صراحة مشروعية "التحزّب" (l'esprit de parti) ووجوبه.

[8] عن هيدغر يرث العصر المنصرم أنشودة موت "الذات" والهُزْء بالوعي

تكون مجرّد وجهة نظر، أي حقيقة فردية ومفردة، وتكون قابلة للتداول والتواصل؟ ولا يسعنا الاكتفاء بما اكتفى به شيخ الفيزياء الشهير عندما قال: «من غير المفهوم أن يكون العالم مفهوماً». لقد كان له من فيزيائه ما يغنيه عن الإصرار على الفهم، أما نحن فلا حيلة لنا سوى أن نحاول، سوى أن نتدبر الأمر كي يظل الكلام قادراً على الجري والتناسل.

وحيلتنا الباقية هي أن نفرض الفروض الواقية عسى أن تتعلق بواحد منها فينشلنا من الغرق في اللا معقول. فلنفرض إذن أن العقل البشر واحد بمنازع كثيرة أو بملكات متساوية، فما يصح لديه في واحد على وجه الصدق والاتساع يصح لديه في آخر وفي الكل جميعاً.

شرط أن لا تنسى أن مدار الأمر فرض من الفروض وضرب من الآطيقا.